دكتور محمد أحمد محمد
مدرس التاريخ الاسلامى
كلية الآداب - سوهاج

الغزو التيمورى

لبلاد الشام وآثاره

(٨٠٣ هـ / ١٤٠٠-١٤٠١م)

دار الهداية
للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمة

هـذا بحث يعالج « الغزو التيمورى لبلاد الشام » . دعانى الى تناوله تلك الفترة التى وقع فيها ذلك الغزو والتى تمثل مرحلة تاريخية خطيرة جديرة بالدراسة والاعتبار ، لما لها من معانى ودلالات ، لعل من أهمها محـدودية نشاط مصر المملوكية فى دفع الأطماع الخارجية عن بلاد الشام فى أول عهد الجراكسة ، مما يعكس لنا حـالة الضعف التى مرت بها مصر اذ ذاك ، الأمر الذى أتاح لتيمورلنك فرصـة لتنفيذ سـياسته التوسعية على حساب ضعف الدولة المملوكية .

كما أن ذلك الغزو يجعلنا نستحضر ما كان لمصر من مكانة بارزة بين حين وآخر على مر العصور الاسلامية ، وما كانت تحتله كمركز للحماية للمناطق التى امتد اليها نفوذ المماليك فى بلاد الشرق ، اذ كثيرا ما يحـدث التوتر والاضـطراب فى تلك المناطق فى حالة اذا ما كانت مصر تعـانى من أسـباب الضعف والاضمحلال ،على حين يسودها الاستقرار حينما تؤدى دورها المعهود فى تأمين هـذه البلاد من أى تمرد داخلى أو أطماع خارجية ، ويتضح لنا دور مصر فى هذا السبيل بين عهدى القوة والضعف اذا ما تناولنا دورها فى درء الأخطار المغولية الواقعة

على بلاد الشام فى عهود قطز وبيبرس وبنى قلاون ، وجهودها فى درء نفس الأخطار فى أول عهــد الجراكسة ، اذ كان الأول جاسما دافعــا ، على حين كان الأخير ضيفا محــدودا ، وهو ما نعنيه من دراستنا لهذا البحث ، فضــلا عن عنايتنا بأهمية ذلك الصراع من حيث مؤثراته وأبعاده .

وتناولت تلك الدراسة أربعة موضوعات ، عالجت فى الأول « دور مصر » فى أحداث الشرق الاسلامى بين عهدى القــوة والضعف فى عصر سلاطين المماليك ، كما اهتممت بأحداث الغزو التيمورى لبلاد الشــام ، فتناولت فى الجانب الثانى الخطط العسكرية ، وفنون القتال وما تكشفه لنا من دلالات ومعانى ، وأما الجــانب الرابع ، فخصصته لتأثيرات ذلك الغــزو على الحياتين الاقتصادية والاجتماعية فى الشــام ومصر ، وأنهيت الدراسة ، بالحديث عن الأبعاد الحضارية لذلك الغزو ، مبينا اسهاماته بطــريق غير مباشر فى التطور الحضــارى لحضارة الدولة التيمورية ، وما ألحقه من كارثة حضارية ببلاد الشــام .

هذا وبالله التوفيق وعليه قصد السبيل ،،

يكشف لنا الغزو التيمورى لبــلاد الشام طبيعة الصراع بين القــوى المتنافسة فى الشرق الأدنى الاســلامى فيما بين القرنين الثامن والتاسع الهجريين (الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين) ، كما أن أخبار هــذا الغزو يؤكد لنا بما لا يدع مجالا للشك دور السلطنة المماليكية على طريق درء الأخطار المحــدقة بمصر وبلاد الشام جملة وتفصيلا ، ذلك أن مصر كانت تمثل فى عهد ازدهار تلك السلطنة مركز الحماية لشرق البحر المتوسط ، فضلا عن دورها فى تأمين كثير من بلاد الشرق الأدنى المشمولة بالحماية المماليكية على حين يسود الاضــطراب تلك البلاد اذا ما أخذت هذه السلطنة سبيلها الى الضعف •

وأكبر دليل على صحة ما ذهبنا اليه ذلك الصراع المماليكى المغولى بين عهدين ، أولاهما يرتبط بذلك الدور الذى قامت به مصر فى درء الخطــر الايلخانى عن بلاد الشام فى عهود قطز والظاهر بيبرس وبنى قلاون ، وثانيهما اخفاق السلطنة المماليكية الجركسية فى مصر ودرء الخطر التيمورى الذى حل بتلك البلاد ، ومحور النزاع فى هــذا الميــدان نجاها أو اخفاقا فى هــذين العهــدين ظل موقــوفا فترة طويــلة من الزمن على دور مصر المملوكية سلبا وايجابا فى مواجهة الأطماع المغــولية ، ذلك أن مصر أسهمت بدور هائل فى وقف الأطماع الايلخانية التى اتجهت صوب بلاد الشام استكمالا للاستراتيجية الايلخانية التى تدور حول محور واحد وهو نشر الأطماع فى بلاد الشرق رغبــة فى تكوين امبراطورية مغولية مترامية الأطراف •

ويأتى دور مصر فى هــذا السبيل من خلال الجهود الموفقة التى بذلها السلاطين المماليك بعد انتصارهم فى « عين جالوت » ، اذ ضموا بلاد الشــام الى مصر(١) ، وأفادوا فيما تؤكده من موارد هــذه البلاد ، وأخضعوا النظام الاقطاعى ليكون أداة طيعة فى خدمة الصرف على نفقات الجيوش واعــلان الجهاد ، مدفوعين فيما نرى بذلك الاستقرار الاقتصادى الذى ساد مصر فضلا عن الارتقاء بالشخصية المملوكية التى لقيت استياءا ابان قيام دولتهم ، على أن الدافع الأول له نتائجه البالغة الأهمية فى الانتصارات التى أحرزها الظاهر بيبرس (٦٥٨ ــ ٦٧٦ هـ) ــ (١٢٦٠ ــ ١٢٧٧ م) ووقفة للغارات الايلخانية حتى وفاته(٢) .

ولا ننسى فى هذا السبيل العامل الدينى ، واسهام مصر فى توحيد الجبهة الاسلامية بانضمام العناصر المماليكية المــارقة فى الشام الى جانب السلطة الحاكمة فى مصر(٣) ، واحياء الخلافة العباسية فى القاهــرة(٤) واتباع المذاهب السنية الأربعــة فى الوظائف العلمية والقضائية(٥) ، وتأتى هذه الاجراءات تتويجا لمــا اتخذه المماليك فى مصر سبيلا للنهوض بالمسلمين وسبيلا ــ أيضا ــ للارتقاء بالشخصــية المملوكية التى باتت عنصرا فعالا ومؤثرا فى تطور الأحداث السياسية فى منطقــة الشرق الأدنى الاسلامى فى وقت تطلع فيه المسلمون فى هــذه المنطقة الى قوة تخلصهم من الوثنيين المغول(٦) .

كانت للجهود التى بذلهــا المماليك الأوائل أكبر الأثر فى

القضـــاء على الأسطورة المغـــولية التى تقول أن « المغول قوم لا يغلبون» على حين اختلف الأمر فى بداية الدولة المملوكية الثانية (٧٨٤ ـــ ٩٢٣هـ) (١٣٨٢ ـــ ١٥١٧م) ، ذلك أن دور مصر فى وقف الأخطار الخارجية كان اذ ذاك ضعيفا ضيقا محدودا ويرجع ذلك الى الأزمة الاقتصادية التى أخذت تزحف على مصر منـــذ سنة الشراقى سنة ٧٧٦ هـ فى عهد السلطان الأشرف شعبان ، وامتـــداد تلك الأزمة على مر فترة زمنيـــة طويلة كانت ايذانا باضمحـــلال سلطان المماليك فى مصر والشـــام(٧) على أن تلك الأزمة اشتدت فى عهدى السلطانين الظـــاهر برقوق (٧٨٤ ـــ ٨٠١ هـ / ١٣٨٢ ـــ ١٣٩٨م) وابنـــه فرج (٨٠١ ـــ ٨٢٥ هـ / ١٣٨٩ ـــ ١٤١٢ م) ، ولنضرب مثلا بعهـــد الأول ، اذ تعرضت البلاد فى عهـــده قبيل قدوم تيمورلنك بجحـــافله على الشـــام لأزمتين خلال سنتى ٧٩٧ هـ و ٨٠١ هـ وكان من شأنهما أن ألقت البلاد المصرية فى هوة من الفوضى واشتد الغلاء بالناس بعد أن استولى الفناء أراضيهم(٨) ٠

واقترنت هذه الأزمة بقيام النزاع السياسى بين المماليك الأتراك والمماليك الجراكسة ، وأفقد ذلك النزاع السلطان برقرق سلطانه فتره زمنية قصـــيرة ، غير أنه ما لبث أن عاد سريعا الى مقعد السلطنة من جديد(٩) ، ومما يجدر ذكره فى هـــذا السبيل أن الناس فى الشام ومصر انشغلوا بهذا الصراع الداخلى حول السلطنـــة معبرين عن سخطهم تجـــاه السلطة الحاكمة ، فنهبوا القلعة ، واستولوا على ما فى حواصـــل الاسطبل السلطانى من

سروج(١٠) كما كان للعامة فى مصر خـلال تلك الأزمـة دور فى التعبير عن سخطهم للسلطة الحاكمة ، فخرجوا فى صورة ثورات معلنين استيائهم ازاء ما ألم بهم من ظـلم وجور فى ظل النظام الاقطاعى ، ومن مظاهر ذلك ، أنهم خرجوا سنة ٨٠٠ هـ مطالبين برقوق باطلاق سراح والى القاهرة علاء الدين الطبلاوى الذى أتاح لهم حياة مستقرة(١١) ، كما كانت لثورات العربان نفس الدور ، اذ ثاروا فى مصر والشام سـنة ٧٩٧هـ ــ ١٣٩٤ م حتى بلغ الأمر بثوار العربان فى مصر أن طالبوا عربان الكرك بالوقوف الى جانبهم لنزع السلطنة من برقوق(١٢) •

والأمر الجدير بالاعتبار أن هذه الأحداث قد ألمت بمصر والشـام فى وقت كان فيه تيمور قد نجح فى دخول العراق سنة ٧٩٥ هـ وأخذ يزحف بجحافله على بلاد الشام ، فانشغل برقوق بأنباء الغزو التيمورى وأخذ يعد العدة ، غير أن الضعف والوهن الذى أصاب جبهته الداخلية لم يعطه فرصة الوثوب على تيمور ، على أن هـذا الأخير انشغل بتوسعاته فى بلاد الكرج وحوض الفلجا والهند مما أتاح لبرقوق فرصة فى أن يكسب ولاء البلاد المشمولة بحمايته والعثمانيين ، وانتهى الأمر بنجاحه فى تكوين جبهة موحدة ضمت صاحب سيواس وزعيم التركمان (الشـاة السـوداء) وخان القبيـلة الذهبية ، والسـلطان العثمـانى بايزيد(١٣) •

ويبدو أن برقوقا خرج الى الشام حيث حلب مدفوعا بتلك

الجبهة لاعادة أحمد بن أويس الجلائرى الى عرشه فى بغداد ، غير أنه ما لبث أن عاد الى القاهرة حيث توفى سنة ٨٠١ هـ/١٣٩٩ دون أن تتاح له الفرصة لاظهار شجاعته(١٤) ٠

ولم تكن بداية السلطان فرج بن برقوق أحسن حالا من عهد أبيه ، اذ ثار فى وجهه نائب الشام وحماه وطرابلس وحلب العرب والتركمان وانضم الى جانبهم الأمير ايتمش فى القاهرة ، وعلى الرغم من اخماد هذه الحركة ، الا أنها سرعان ما عادت سيرتها الأولى فى وقت كان تيمور لنك قد أظهر أطماعه فى أراضى الدولة المملوكية (١٥) ٠

ومن الثابت أن مصر فى عهد فرج بن برقوق كانت تعانى أزمة اقتصادية طاحنة أشار اليها المؤرخون المعاصرون « بأعوام المحن »(١٦) ، حيث انخفضت مقادير الجباية فى كافة الأعمال المصرية بصورة لم يسبق لها عهد من قبل(١٧) على أثر ذلك الخلل الذى حل بالنظام الاقطاعى ، وواكبت تلك الأزمة ظهور التهديدات التيمورية لأراضى الدولة المملوكية ، ومن ثم كان دور مصر فى مواجهة هذه الأخطار ضعيفا ، وانتهى الأمر بأن نجح تيمور لنك فى الاغارة على الشام ، وغنم مغانم كثيرة ما لم يحققه الايلخانيون فى تلك المنطقة فى أوج عظمتهم اللهم الا ذلك القدر الضئيل الذى أحرزوه زمن السلطان الناصر محمد بن قلاون(١٨)٠

والواقع أنه لم تكن هناك جهود قام بها الجراكسة فى تلك الآونة تعويضا لما منيت به البلاد من هزات سياسية

داخلية وأزمات اقتصادية ، ذلك أنه لم تكن هناك ظروف تسمح باعلان الجهاد الدينى بالصورة التى رأيناها عند المماليك الأوائل ، وكل ما فى الأمر أن برقوقا لما أحس بخطر تيمورلنك سارع الى مراسلة السلطان العثمانى بايزيد وقرا يوسف زعيم التركمان يستحثهم للوقوف بجانبه لدرء الخطر الذى ألم بهم جميعا ، ولا يعنى ذلك أن برقوقا نجح فى تكون جبهة اسلامية .

فصحيح أن هناك قبولا وارتياحا أبداه الجراكسة تجاه الانتصارات العثمانية على الأوربيين ، وصحيح أيضا أن السلطتين الجركسية والعثمانية كان يجمعهما روح الوفاق فى بداية الأمر ، وتبادلا الهدايا(١٩) وخرج المبعوثون من قبل السلطان العثمانى الى السلطان المملوكى برقوق سنة ٧٩٦ / سنة ١٣٨٨م بقصد تحذيره من تحركات تيمور لنك(٢٠) ، على أن ذلك كله لم يمنع سلاطين العثمانيين من أن يتجهوا صوب أراضى الدولة المملوكية لنشر أطماعهم وتحقيق استراتيجيتهم القائمة على الغزو والتوسع ، وأكبر دليل على ذلك نجاحهم فى عهد « بايزيد » فى غزو ملطية سنة ٨٠٣ التى كانت مشمولة بالحماية المملوكية(٢١) الأمر الذى جعل السلطان فرج بن برقوق يعلن استياءه ازاء مقاصد العثمانيين التوسعية ، ولم يكن الأمر مقصورا على ذلك ، بل تطور الأمر حتى رأينا كبار الأمراء فى مصر يحذرون السلطان من ذلك الاتجاه العثمانى الذى أظهر نواياه العدوانية تجاه المماليك(٢٢) .

ويجدر بنا أن نشير هنا الى أنه اذا كان هناك توافق بين العثمانيين والجراكسة ، فانما يرجع الى أن هاتين القوتين قد تعرضنا لعدو واحد مشترك وهو تيمور لنك الذى شن غاراته على كثير من أراضى الدولتين •

ويصدق ما ذهبنا اليه على ذلك التقارب الذى نشـأ بين السلطان المملوكى والسلطان العثمانى من جهـة ، وبينهما وبين زعيم التركمان (الشاة السوداء) « قرا يوسف » ذلك أن الأخير كانت تربطه بتيمور لنك علاقات عدائية وكان من أكبر مظاهرها تعرضه للنفى بأمر من تيمور لنك(٢٣) ، ولم يجد مخرجا أمامه سوى التحالف مع العثمانيين علهم يخرجونه مما هو فيه من ظلم وجور ، وكان طبيعيا أن يحدث نوع من التحالف بين هذه القوى الثلاث ازاء أطماع تيمور لنك •

اذن لم يكن هنـاك تحالف اسلامى تجـاه أغراض تيمور التوسعية ، وكل ما فى الأمر أن هـذه القوى الثلاث استجمعت حول هدف واحد لدرء الخطر التيمورى ، كما أن تيمور لنـك لم يكن وثنيا ، ولا مسيحيا ، بل كان مسلما شيعيا وهو أمر يجعلنا نذهب الى عدم الأخذ بتلك المقولة التى تشير الى أن المماليك نجحوا فى عهد برقوق فى تكوين الجبهة الاسلامية درءا للأخطار التيمورية(٢٤) •

ويمكن القول — اذا صح هذا التعبير — أنه تعاطف مذهبى من خلاله وقف العثمانيون السنيون الى جانب المماليك لفـترة

زمنية قصيرة لمناورة تيمور الشيعى الطامع فى غزو كليهما ، كما أنه يمكن القول بأن هذه القوى تكاتفت فى صورة جبهية قومية لدرء الخطر المشترك ، حتى اذا ما سمحت الظروف لاحداها أن تثبت على أراضى الآخر تحقيقا لاستراتيجية توسعية ، فاذا بها تبادر لتحقيق ذلك ، وليس أدل على ذلك من ذلك الغزو العثمانى سنة ٨٠٣ هـ للطية المشمولة بالحماية المملوكية .

بدأ تيمور لنك أعماله الحربية باخضاعه سمرقند (٢٥) ، وخوارزم(٢٦) ، ومنها اتجــه الى هراة(٢٧) ، فأخضعها سنة ٧٨٥ هـ / سنة ١٣٨٣ م ، وسرعان ما أخذت استراتيجيته سياسة فرض الارادة ، فانتقل الى شمال فارس سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٤م ، وأخضعها ، ثم أذربيجان(٢٨) ، وجورجيا سنة ٧٨٨ — ٧٨٩ هـ سنة ١٣٨٦ — سنة ١٣٨٨ م ، ولم يلبث أن اتجه صوب حوض نهر الفلجا(٢٩) ، ثم انتقل الى الهند ، واستمر على تلك الحال حتى نشر أطماعه فى العراق سنة ٧٩٥ هـ / سنة ١٣٩٤ م ومنها أخذ يتجه صوب أراضى الدولة المملوكية فى الشام(٣٠) .

ويمكن لنا أن نقسم الجهاد المماليكى تجاه الخطر التيمورى الى مرحلتين أولاهما : يمثل تهديدات بين الجانبين عن طــريق تبادل الرسائل المعلنة ، فكان تيمور لنك يراسل برقوقا برسائل يهدده فيها اذا لم يذعن لأوامره ويخضع لارادته فى حين كان برقوقا لا يعبأ بمثل هــذه الرسائل ، ويرد عليها بتهديد قائلا له

(لا سمع لكم ولا طاعة)(٣١) مدفوعا بهـذه الجبهة المشتركة التي سارع الى تكوينها على نحو ما ذكرنا .

كما أن هـذه المرحلة من الجهاد المماليكي تجاه أخطـار تيمورلنك تتسـم بالهدوء دونما حدوث مواجهة عسـكرية بين الجانبين ، حيث اكتفى كل جانب بالوقوف على أحوال الآخر ، ويرجع ذلك فيما نؤكده الى ظروف كليهما ، ذلك أن تيمور لنك لم يمض فى طريقه بعد دخوله العراق لضرب السلطنة المملوكية فى الشام ، اذ شغل لنفسه بتوسعاته فى الهند مما كان له أثر كبير فى تأجيل الصدام بينه وبين السلطان المملوكى(٣٢) ، ولـما عاد من الهند اتجه صوب بغداد من جديد سنة ١٣٩٩/٨٠١ لاخضاع أحمد بن أويس الذى شـكل مع برقوق تحالفـا مما مكنه من استرداد عرشـه والتغلب على الحامية التى تركها تيمورلنك فى بغداد(٣٣) أما برقوق فكان مشغولا هو الآخر بالمشاكل التى ألمت بمصر والشام سياسية كانت أم اقتصادية،فضلاعن انشغاله باعداد العدة لمواجهة الخطر التيمورى ، وظل على تلك الحـال الى أن توفى سنة ٨٠١ هـ ليخلفه ابنه الطفل فرج الذى لم يعد فى مقدوره ما يرقى الى مواجهة أخطـار تيمورلنك ، ومن ثم نجح هـذا الأخير فى دخول بغـداد سنة ٨٠٢ هـ ، وضرب الجيوش الشامية المتحالفة مع أحمد بن أويس (٣٤) .

أما المرحلة الثانية على طريق الجهاد المماليكى ازاء الخطر التيمورى ، فانها تشكل أزمة خطـيرة فى تاريخ دولة المماليك فى

مصر والشـــام ، ذلك أن الجهاد فى تلك المرحلة لم يأت ثماره ، لمـا واكبه من أحداث تتسم بالغوغائية من جانب الانقسـامية من جانب آخر ، ففى الأولى ، لم ير السلطان فرج بدا من توفير المـال طلبا للجهاد ازاء ما ألم ببـلاده من أزمات ، فلجأ الى فرض ضرائب استثنائية على التجار ، فضلا عن قبوله لحل نصف الأوقاف ، وارتكب الأمـراء المكلفون بجبـاية الأموال أعمالا غوغائية كانت لها أسوأ الأثر فى نفوس الأهلين،أما الثانية فتشير الى تصدع الجبهة الموحدة التى كانت على عهـد برقوق وذلك بتحذير الأمراء لسلطانهم الصغـير فرج بن برقوق من نوايا العثمانيين الذين إستولوا على ملطية ، فضلا عن ذلك الانقسام الذى حدث فى الجبهة الداخلية على أثر اندلاع الثورات الشامية التى تجددت فى وجه فرج بعد وفاة أبيه (٣٥) .

وكانت لهـذه الأسباب التى سقناها أسوأ الأثر على الدور المماليكى ازاء الخطر التيمورى ، ذلك أنه لم يكن دافعا حاسما حيث بذل النواب الشاميون قصارى جهدهم فى وقت كان فيـه السلطان بعيدا عنهم .

كان طبيعيـا أن يشرع تيمورلنك فى غـزو أراضى الدولة المملوكية تتويجا لأعماله التوسعية منتهزا حالة الضعف التى منيت بها هـذه الدولة فاستولى سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م على سيواس (٣٦) ومرعش ، وغينتاب(٣٧) ، وسرعان ما دخل حلب فى الربيع من نفس السنة(٣٨) ، ومنها اتجه الى دمشق وظل بها

ثمانين يوما ، غير أنه مالبث أن رحل عنها فى ٢ شعبان سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠١ م طالبا الصلح على قاعدة تبادل الأسرى شريطة أن تصك عملة باسمه ، وانتهى الأمر على هذا النحو بأن غادر تيمورلنك الشام دون أن يدخل مصر أو يحكمها ، حيث أخضع فى طريق عودته السلطان بايزيد العثمانى فى أنقرة سنة ٨٠٤ هـ ، وأعاد فتح بغداد ، ثم عاد الى بلاده حيث توفى فى سمرقند سنة ٨٠٧ هـ .

والأمر الجدير بالاهتمام ، أنه لم يكن للسلطنة المماليكية دور حاسم فى دفع هذا الخطر ، اللهم إلا ما أمدنا به المعاصرون عن ذلك اللقاء الذى جرى بين الفريقين فى واقعة دمشق سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م فى المرحلة الأخيرة من هذا الصراع بما يبين لنا أنه قد حدث التحام أصيب فيه الجيش المملوكى بخسارة فادحة(٣٩) غير أن السلطان فرج بن برقوق لم يظهر شجاعته وترك ميدان القتال بعد أن أوقع تيمورلنك الفتنة فى صفوف أمرائه(٤٠) مما أتاح لهذا الأخير فرصة دخول المدينة وعاث فيها فسادا ، وأعمل السيف فى رقاب الأهلين ، واستولى على دروبها وحاراتها واقطاعاتها على نحو ما سنرى .

لم تحدث — بوفاة تيمور — مواجهة عسكرية بين المماليك والتيموريين غير أن العلاقات استمرت فى توتر بين السلطان المملوكى برسباى (٨٢٥ هـ / ٨٤١ هـ — ١٤٣٢ / ١٤٣٧ م) وبين شاه رخ حول النزاع على كسوة الكعبة(٤١) وأطماعهما فى

منطقة الفرات العليا (٤٢) ولم ينته ذلك النزاع بين الطرفين بوفاة برسباى ، اذ ظل مستمرا بين السلطان حقمق (٨٤٢ هـ / ٨٥٧ هـ — ١٤٣٨ م / ١٤٥٣ م) وشاه رخ ، على أنه سرعان ما تحول الى المسالمة بحيث غدت العلاقات بين الجانبين قائمة على الود واللين حتى وفاة شاه رخ ٨٤٩ هـ / ١٤٤٤ م(٤٣) ، لما أبداه حقمق من حسن النوايا بسماحة لشاه رخ بارسال كسوة الكعبة .

وأكبر ما يقابلنا من أدلة على ذلك الضعف الذى أصاب القوة المماليكية فى تلك الآونة ما استخلصناه من اشارات الكتاب المعاصرين من أخبار حول الخطط العسكرية وفنون القتال التى اتبعتها القيادة الشامية ازاء دفع الغارات الهجومية التى وجهها تيمورلنك على النيابات الشامية ، ذلك أن أول ما يكشفه لنا أنباء هذا الغزو أنه لم يكن هناك أية امدادات عسكرية مصرية أرسلها السلطان المملوكى الى الشام باستثناء ما قام به فى نهاية مراحل ذلك الغزو ، وهو أمر كان من شأنه أن تولت القيادة فى النيابات الشامية أمر المواجهة مما يعكس لنا ذلك الضعف الشديد الذى حل بمصر وأحوالها السياسية والاقتصادية .

نستخلص من كتابات المقريزى (ت٨٤٥هـ)(٤٤) وابن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ)(٤٥) أن جيش تيمورلنك الزاحف على بلاد الشام قد سار بحذاء الأطراف الشامية صوب القلاع والحصون معا ستخدام الجواسيس لكشف أخبار المواقع المراد غزوها ثم

العودة لتبليغ قيادة الجيش بما توصلوا اليه من معلومات ، وكان طبيعيا للنجاح فى هذا السبيل أن يهتموا بمعرفة الطرق والدروب والمسالك ، وهو أمر شائع عند اهتمامات المغول(٤٦) .

وكان تيمورلنك فى حروبه التى شنها على النيابات الشامية يلجأ الى أساليب المهادنة والمكر والدهاء فى حالة اذا ما واجهه صعوبات فى غزو الموانع الحصينة ، ولنضرب مثلا لاستخداماته لهذه الأساليب بما اتخذه سبيلا للخروج من المواقف التى تعرض لها فى حصاره لحماه ودمشق(٤٧) .

وكان طبيعيا أن تكون للجيوش الشامية خططها وتنظيماتها التى توضح لنا خصوصية النظام الحربى للدولة المملوكية على أنه سرعان ما انعدمت هذه الخصوصية فى دفع الغارات التيمورية لقلة الجند وعدم وصول الأمدادات المصرية اليهـا الأمر الذى يجعلها تتجه الى الاستعانة بالخطة البيزنطية القديمة والتى بمقتضاها انحصرت المقاومة الشامية فى سلسلة من التحصينات الداخلية فى حلب وسيواس وحماة ودمشق (٤٨) .

اتخذت المعارك التى دارت بين تيمورلنك والقيادة الشامية صورة يوميات بين خطة هجوميةمن جانب الجيش التيمورى تقابلها خطة دفاعية من جانب الجيوش الشامية تدور حول نجاح الشاميين فى المواجهــة بعض الوقت الى أن ينتهى الأمر بهم باللجوء الى حصونهم المنيعة بمجــرد نجاح تيمورلنك فى اتخــاذ تدابيره العســكرية ، كمــا أن النزاع الذى دار بين النيـــابات فى الشــام والسلطة الحاكمة فى مصر لم يقف حائلا أمام جمع

شتات النواب الشامية للوقوف صفا واحدا ، ومن ثم كانت الخطة العسكرية الشامية تعتمد على انطلاق الجيوش فى صورة امدادات عسكرية من سائر النيابات الشامية الى المنطقة التى يقع عليهـا الغزو التيمورى •

ولنضرب مثلا بما اتخذته القيادة فى النيابات الشامية ازاء الخطر التيمورى الذى وقع على مدينة حلب (فى ربيع ٨٠٣ هـ / أكتوبر ١٤٠٠ م) اذ خرجت العساكر الشامية اليها تحت امرة كل من نائب الشام ونائب حماه ونائب طرابلس ونائب صفد ونائب غزة(٤٩) وسرعان ما أخذت هـذه الجيوش تنظيما فى شكل ثلاثة رؤس ، ميمنة ، وميسرة ، وقلب ، وكان يشغل الميمنة عساكر دمشق ، فى حين كان يشغل الميسرة عساكر حلب ، واحتلت بقية العساكر قلب الجيش(٥٠) وواكب هـذا التنظيم اعلان التعبئة العامة بحيث صار الأهليون شأنهم فى ذلك شأن العسكر يؤدون مهاما قتالية دفعا للخطر الواقع على مدينتهم(٥١) ، غير أن تلك الاستعدادات لا ترقى الى مواجهة جحافل تيمورلنك التى يذكر عنها(٥٢) المؤرخون أنها (قد سدت الفضاء) فى وقت غابت فيه عنـاية السلطنة المملوكية فى مصر ، مما كان له أسوأ الأثر على نفوس المحاربين ، اذ (كانت الأهواء مختلفة ، والآراء مغلولة ، والعزائم محلولة ، والأمر مدبر)(٥٣) •

انتهى الأمر بهـزيمة الجيوش المتحـالفة التى لجـأت وسائر الأهلين الى قلعة حلب التى تكفل لهم الحماية لمـا بها من تحصينات تتمثل فى أبراجها وأسوارها وخنـدقها الذى يحيط

جها من كل جانب ، على أن تيمورلنك نجح فى اقتحام القلعة بعد أن نقبها بالمنجنيقات ، وردم خندقها فى وقت لم يكن للمعتصمين بداخلها أثر البتة(٥٤) وهكذا دخل تيمورلنك قلعة حلب وعامل عسكرها بما ينطوى على القسوة والظلم(٥٥) الأمر الذى دعاهم الى طلب الأمان ، ولم ير تيمورلنك ازاء هذا التسـليم غضاضة فى أن يستمر فى فظاظته حتى ألحق بالأهلين ألوانا من القهـر ما لم يعهدوا بمثله ، على نحو ماأورده صاحب كتاب السلوك(٥٦)

ويبدو أن الفشل الذريع الذى منيت به الجيوش الشاميـة ألجأهم الى اتباع نظام الاستنفار الذى بمقتضاه ينهض النائب ينادى فى الناس بالتحول الى المدينة والاستعداد لملاقاة العدو وكان ذلك نداءا قوميا يعلنه النائب استنفارا للناس للزود عن أراضيهم وممتلكاتهم(٥٧) لذلك لم يكن ذلك النظام فى تلك الآونة يتم داخل الجيش ، بل كان موجها لاعلان التعبئة العـامة بين الأهالى فى وقت ضعفت فيه الذاتية المملوكية فى ادارة الحروب، على أن دور الأهلين فى دفع الاخطار الخارجية عن مدنهم لا ترقى فى هذا السبيل دونما وقوف قيـادة بجانبهم تدبيرا لأمرهم ، ولنأخذ اشارات ابن تغرى بردى عن أهالى دمشـق دليلا على صحة ما ذهبنا اليه ، ففى ذلك يقول « فلعمرى(٥٨) لو رأى من ... قتال أهل دمشق الآن وشدة بأسهم وهم بغير نائب ولامدبر لأمرهم فكيف ذلك لو كان عندهم متولى أمرهم بمماليكه وأمـراء دمشق وعسـاكرها لكان يحق النـدم والاعـتراف بالتقصير ... »

على أن ضعف القيادة لم يقف حائلا أمام الأهالى الشامية من أن تؤدى دورا هائلا فى مدافعة الحاميات العسكرية التى يتركها تيمورلنك حماية للمواقع التى يغتنمها ماضيا الى غزوات أخرى ، وتلك التجريدات التى كان يرسلها بين حين وآخر لغزو أطراف النيابات فى الشام فى الوقت الذى كان مشغولا فيه لغزو النيابات الكبرى ، ونستدل فى ذلك بدور أهل القرى فى طرابلس ومباغتهم للعسكر التيمورى الذى أوسله تيمورلنك صوب تلك المدينة على حين غفلة منهم ، وقتلوهم عن آخرهم رميا بالحجارة فى شعاب الجبال والتلال على نحو ما يدور فى حرب العصابات(٥٩) .

وتماثل أحداث الغزو التى ألمت بمدينة حلب تلك الأحداث التى منيت بها مدينة دمشق ، وأول ما تكشفه أحداث هذا الغزو وأساليب المكر والدهاء التى اتبعها تيمور فى اقتحام أسوار وقلعة دمشق ، ذلك أنه لما أيقن صعوبة اقتحام أسوار مدينة دمشق تظاهر بطلب الصلح وبعث برجلين من قبله لتبليغ ادعائه لأهالى دمشق الرابضين أعلى السور(٦٠) وسرعان ما قوبل طلب الصلح بالارتياح حيث أسند المعتصمون مهمة اتمام الصلح لقاضى القضاة تقى الدين ابراهيم بن محمد الذى خرج للقاء تيمور ، فما كان من هذا الأخير أن خادعه (بتنسيق كلامه)(٦١) مؤكداً له أنه لا يريد الا أموالا من أهل دمشق ، وانتهى الأمر بأن أقنع القاضى الدمشقيين بالموافقة على الصلح ، وفتحت على أثر ذلك أبواب المدينة ، وما لبث العسكر التيمورى ، أن دخلوا

دمشق وتفرغوا لاقتحام القلعة ، وتذكر المصادر أن تيمور أعد لاقتحام قلعة دمشق اجراءات وترتيبات(٦٢) مكنتهم من اقتحام القلعة ومقاتلة أهل دمشق بداخلها ٠

ويبدو أن هـذا الموقف البطولى من جانب الدمشقيين قد أثار حميـة السلطان فرج بن برقوق ، فخرج للمرة الأولى فى جمـادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ على رأس جيش الى دمشق(٦٣) وقاتل العسكر التيمورى فى ظاهر المدينة الأمر الذى دعا تيمور يعلن تظاهـره لطلب الصلح(٦٤) مما أوقع الفتنـة فى صفوف الأمراء فاضطر السلطان الى العودة الى القاهرة ، تاركا دمشق لتيمورلنك(٦٥) ٠

وكان للغزو التيمورى أسوأ الأثر على الحياتين الاقتصادية والاجتماعية فى الدولة المملوكية ، فقـد أحـدث خللا فى ذلك الاستقرار الذى نعمت به بلاد الشام على مر العصور الاسلامية المتلاحقة ، ذلك أنه بعد أن كانت هـذه البلاد (كثـيرة الميرة والرزق)(٦٦) باتت بعد ذلك الغزو أرضا مستباحة بحيث صار من اليسـير لتيمورلنك اغتنام وجباية ما يحلو له من الأموال النقدية والمقررات العينية ، فقد أطلق لنفسه فى دمشق الحصول على أنواع (المأكول والمشروب والدواب والملابس والتحف) بما يسمى « الطقزات » فى اللغة التركية(٦٧) ،وتفصيلا لذلك ، تذكر أنه حمل اليه من أهالى دمشق عشرة آلاف ألف دينار بما يسلوى ما تغله الأملاك عندهم قدر جباية ثلاثة أشهر تمثل جملة حاقلات الأراضى(٦٨) ، فضلا عن ما حمل اليه من أموال الناس

الذين فروا من دمشق وما استولى عليه من السلاح (جليلاها وحقيرها)(٦٩) ، ومما يجدر ملاحظته أن هـذا الحاصل الرقمى يؤكد بما لايدع مجالا للشك ما كان عليه الأهلون فى النيابات الشامية من الثراء والاستقرار قبل وقوع ذلك الغزو .

ومما ضـاعف من أمر تلك الأزمة التى منيت بها البـلاد الشـامية أن تيمورلنك أقبل على الأراضى الشامية التى غزاها باجراءات تعسفية عاملا فى جنباتها ودروبها النهب والتخريب ، الأمر الذى ألحق بتلك البلاد أزمة اقتصادية عظمى ، وكان من أكبر مظاهـرها أن نزل بالناس (بلاء عظيم ، فقلت الأسعار ، وعز وجود الأقوات ، وبلغ المد القدح — بما يعادل أربعة أقداح — أربعين درهما فضة)(٧٠) .

ولم يقتصر أمر هـذه الكارثة عنـد هذا الحـد بل أقبل تيمورلنك على أراضى البلاد عنوة فاستولى على خطط دمشق وحارتها ودروبها ووزعها على أمرائه ، وسرعان ما استولى كل أمير فى ناحيتـه على أموال المستوطنين حتى بلغ الأمـر على ما أمدنا به « ابن تغرى بردى » (٧١) بأن (حـل بأهل دمشق من البلاء ما لا يوصف) .

ويظهر لنا تأثير ذلك الغزو على الحياة العامة فى النيابات الشامية بعامة ودمشق بخاصة ، من خلال ما حدثنا به الكتاب المعاصرون ، اذ سـجلوا لنا ما أنزله تيمور بأهالى دمشق من ألوان القهر والظـلم ما لا يوصف ، وكان قـدوم عسكره على

احراق الدور والمنازل والمساجد تتمه لأعماله الارهابية حتى صارت جميع الأماكن الحضارية بتلك المدينة (أطلال بالية ورسوما خالية)(٧٢) •

وينبغى أن نشير الى أن سياسة فرض الارادة التى نهجها تيمور فى غزواته لبلاد الشام أمر فرضته استراتيجيته التوسعية عله يفلح فى الزحف الى مصر ، غير أن هذه السياسة لا ينبغى بالضرورة فى الوصول الى تحقيقها أن يقوم الغازى على الميول العدوانية ونشر الأعمال الارهابية فى المناطق التى أتم فتحها ، اذ يكفيه أن يكتسب من غزواته المغانم الكثيرة المادية والعينية دونما لجوء لى تقتيل أو تشريد أو ارهاب بما يماثل أعمال تيمورلنك التى اعملها فى القائمين من أهالى البلاد الشامية •

ونتسائل عما اذا كان هناك من دوافع ألجأت تيمورلنك على ارتكاب أعماله الارهابية فى البلاد الشامية ؟ والحق أن ما أقدم عليه تيمورلنك من أعمال تجاه تلك البلاد ، لا بد له من دوافع ، وباستقصائنا لما أورده ابن عربشاه(٧٣) حول هذه القضية نذهب الى الأخذ بأن الدوافع المذهبية كانت لها أثر بالغ الخطورة فيما أقبل عليه تيمورلنك من سياسات عدوانية تجاه الأهالى الشامية ، ذلك أن تيمورلنك كان شيعيا مغاليا وكثيرا ما كان يستحضر فى نفسه عداء بنى أمية للعلويين ، وما ارتكبه الأمويون من مواقف عدائية ازاء مناهضتهم لهم فى النزاع حول الخلافة ، وكان تيمورلنك يحسب أهالى النيابات الشامية قاطبة من أتباع

أهل دمشـــق حاضرة بنى أمية التى أفقدت العلويين حقهم فى الخلافة ومركزا لتوجيه الضربات القاسمة لهم حتى أنزلت بهم البلايا ، وكانت هــذه الظروف مدعاة لأن يلجأ تيمورلنك الى عقد مجلس فى حلب دعا اليه علماءها وفقهاءها ، وحاورهم حول النزاع الذى نشب بين بنى أميـــة وبنى هاشم من العلويين ، معبرا عن سخطه واستيائه ازاء ما ارتكبه بنو أمية من أفعـــال قائلا (أما معاوية فظـــالم ، ويزيد ناسق ، وأنتم حلبيون تبع لأهل دمشق وهم يزيدون قتلوا الحسين)(٧٤) وظل يحاورهم حتى اجابة القاضى ابن الشحنة الفقيه المـــالكى بأن (عليا على حق وأن معاوية ليس من الخلفاء)(٧٥) ولمـــا وصلت أنباء هذا المجلس أسماع دار السلطنة فى مصر ، نهض السلطان فرج بن برقوق يستوثق فى أمر الخروج لمواجهة تيمورلنك .

اذا كان وراء ما حدث من ايقاع تيمورلنك بأهالى الشام خصوصا دمشق دوافعـــه المذهبيـــة ، التى بعثت فى تيمورلنك ما أقبل عليه بنو أمية منذ قرون مضت تجاه العلويين ، وبلغ من اهتمامات تيمورلنك بقصـــة ذلك الصراع السياسى الدينى أن أوجس القضاة منه خيفة فأجابوه بما يرضيه دون أن يكون لذلك شىء بما يتفق وميولهم المذهبية .

ولا ننسى أن عادة المغول فى ادارة الحروب قد سادت على هذا المنوال الذى يتســـم باشـــاعة التخريب والتدمير والتقتيل وسلب البلاد ، وحسبنا فى ذلك أنهم قاموا بشن عدة غارات على

بلاد الشام (٦٥٧ — ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ — ١٢٦٠ م) وألحقوا بها ألوانا من العذاب والدمار (٧٦) ، ولم يكن تيمورلنك أحسن حالا من زعماء الايلخانيين ، فاتسمت غاراته على القلاع والبلاد الشامية بالوحشية والقظاظة .

والأمر الجدير بالاعتبار أن الغزو التيمورى للبلاد الشامية ألحق أضرار جسيمة بأحوال مصر الاقتصادية والاجتماعية ، ذلك أنه لم يكن تأثير ذلك الغزو مقصورا على ازعاج السلطة المركزية الحاكمة فى مصر ، بل امتد الى العناصر السكانية وحياتها العامة ، اذ كان من الطبيعى أن يلجأ السلطان فى مصر لعقد مجلس فى ربيع الأول ٨٠٣ هـ للمداولة فى أمر توفير المال اللازم طلبا للجهاد فى وقت كانت الظروف أمامه غير ميسورة ازاء ذلك الضعف الذى منى به نظامه الاقطاعى من جراء الكاورث والمحن التى دهمت البلاد المصرية(٧٧) ، وكان طبيعيا — أيضا — أن يفرض ضرائب استثنائية على الفئات المميزة فى مصر خصوصا التجار ، ويقبل على حل نصف الأوقاف دونما اذعان لفتاوى القضاة(٧٨) وهكذا أسند السلطان تلك المهمة للأمير يلبغا السالمى(٧٩) ، فشرع هذا الأخير فى كشف الأخبار طلبا لتحصيل الأموال ، غير أنه كان مغاليا فى سبيل تحقيق مطالب السلطان فيشير كل من المقريزى(٨٠) (ت ٨٤٥ هـ) والعينى (٨٥٥ هـ)(٨١) الى أنه جنح فى سبيل الوصول الى ذلك الى تخصيص ضرائب استثنائية شملت سائر أراضى مصر،من اقطاعات الأمراء وبلاد

السلطان ونواحى الوقف ، وأخبار الأجناد بما يماثل ثمن فرس لكل ناحية يبلغ متحصل ما تغله ألف دينار وخمسمائة درهم ، فضلا عن ما أقدم عليه من جباية ما يماثل أجرة شهر من سائر أملاك القاهـــرة ، ومصر وظواهرها(٨٢) كما لم تسلم أراضى الرزق(٨٣) ، اذ كان يجبى عشرة دراهم عن كل فدان من الأراضى التى تزرع قمحا أو فولا أو شعيرا ، ومائة درهم عن كل فدان من الأراضى التى تزرع قصبا أو قلقاســا(٨٤) كما فرض على التجــار أموالا على سبيل القرض وصـــار (يكبس الفنـــادق وحواصل الأموال فى الليل)(٨٥) وفى تلك الحال يتم فتح المخازن الخاصة بأثرياء القوم ممن يخزنون الذهب والفضة والفلوس ، فضلا عن ما أقبل عليه من حواصل الأوقاف ، وكان ينكل بهؤلاء الذين لم يذعنوا لآداء الجباية ، كما يتم الاستيلاء على جميع ما فى خزائنهم من أموال فى حين كان يسمح بجباية نصف أموال الحــاضرين من الذين أذعنــوا لطلب الجبـــاية من أصحــاب الأموال(٨٦) .

أما المراكب ، فقد أمر يلبغا بجبـــاية مائة درهم عن كل مركب يخرج بقصد التنزه .

ولم يكن الأمر موقوفا على انزال البلايا بالأهليين فى مصر ، بل امتدت تلك المحنة والى العنصر المماليكى المميز ، اذ ألزم يلبغا العاجز من أجناد الحلقة المماليكية عن الخروج الى الشام ضمن عناصر الجيش بأخذ نصف متحصل اقطاعه فى السنة (٨٧) .

وانتهز أعوان يلبغا السالمى تلك الفرصة ، وقاموا بما يشبه أعمال السمسرة فكان الصيرفى الذى يعاونه يقوم بتحصيل ثلاثة دراهم عن كل مائة درهم يستخـــرجها من أموال الناس ، على حين كان الشـــخص الموكل بالقيـــام بجمع الأموال ويســـمى « الرسول » يحصل على ستة دراهم(٨٨) •

ولمـــا أيقن السلطان فرج بن برقوق ما أحـــل بالناس فى مصر من جـــراء ســـياسة يلبغـــا التعســـفية نكل به ، وأمـــر بمحاكمته(٨٩) فى ذلك الوقت الذى انشغل فيه بالخـــروج الى الشام ، غير أنه لم يدرك ذلك الا فى الوقت الذى أخذ يزحف فيه تيمورلنك على دمشق •

يتضح لنا مما تقـــدم أن السلطان فى مصر لم ير غضاضة ازاء ما أحدثه نظامه الاقطـــاعى من ضعف ميزانية الدولة من ارسال حملات لنواحى البلاد لتحصيل الأموال لتغطية نفقات الجند لدرء الخطر التيمورى الواقع على الشام ، غير أن أعضاء هـــذه الحملات كثيرا ما تلجأ من وراء ذلك الى تحقيق مآربهـــا الشخصية فى جمع الأموال بصورة لا تقل شأوا عما يحـــدث فى عمليات القرصنة وهو أمر يعكس ذلك الضرر الذى أحدثه النظام الاقطاعى المملوكى بسائر الفئات فى مصر حتى بلغ الأمر فيما يذكره المقريزى(٩٠) أنه (اشتد الضرر •• وكثر دعاء الناس على السالمى ، وانطلقت الألسنة بترفة وشنعت القالة فيه ، وتمالأت القلوب على بغضه) •

وما هو جدير بالملاحظة أن جباية الأموال التى أقبل عليها السالمى على تلك الحال كانت لها أسوأ الأثر على روح التضامن الاجتماعى التى سادت عصر المماليك ، ذلك أن هذه الاجراءات التعسفية شملت أهل الذمة مما أضر بروح الوفاق التى سادت العلاقات بين تلك العناصر والسلطة الحاكمة فى مصر ، ويحدثنا المقريزى(٩١) أن يلبغا السالمى قد عامل أهل الذمة بما ينطوى على القسوة والعنف ، فألزمهم بجباية الأموال ، ونكل بهم بحيث فرض عليهم قيودا أمرهم باتباعها عند دخولهم الحمامات وأماكن العبادة .

كما كان للاقبال على حل بعض الأوقاف أثر بالغ الخطورة على روح التضامن الاجتماعى ، اذ كان من الطبيعى أن تقل على أثر ذلك الجهود التى خصصت لمجالات الرعاية الاجتماعية والتى كان للأوقاف دور كبير فى تدعيمها والمعروف أنه حدث تدهور للأوقاف فى بداية القرن التاسع الهجرى(٩٢) ، وواكب هذا التدهور أحداث الغزو التيمورى للأراضى الشامية .

كما أحدث ذلك الغزو تحولا فى التركيب الاجتماعى فى مصر ، اذ كانت مصر موطنا للفارين من الأهالى ، والعناصر المماليكية من بطش الغزاة(٩٣) ، وكان طبيعيا فى ظل هذه الأزمة أن تفكر السلطة الحاكمة فى مصر فى ايجاد مخرج ازاء هذا التحول حتى يجد هؤلاء الفارون القادمون ملاذا لهم فى أماكن يشغلونها .

وواكب قدوم الفارين الي مصر من بطش تيمور دعوة لطرد الأجانب رغبة فى الانتقــام من الأعاجم لمــا لحقهم من جراء الكوارث التى أنزلها تيمور بالأراضى المملوكيــة حتى بلغ الأمر بالأهلين بأن طالبــوا باخــراج كل من يقع على أرض مصر من أعجمي ، فغادوا (من نصره الاسلام قتل أعجمي) مدفوعين بتلك الدعوة التي أعلنها الفقهاء حول اعلان الجهاد لحرب عساكر تيمور الأعاجم (٩٤) ، وما أقبل عليه الفرنج من السطو علي سنة مراكب موسقة بالغلال كان قــد حملها المصريون الى سواحل الشام تعويضا لمــا أصاب بلاد الشام من القحط والغلاء الذى أحدثه الغزو التيموري(٩٥) ٠

ومما لا شك فيه أن رغبة السلطة فى مصر فى طرد الأجانب كانت سبيلا لأن يستولى الفرنج على مراكب الغلال المتجهة من مصر صوب الأراضى الشامية ، كما أن هــذه الأحداث اقترنت بالهجوم التيمورى على الأراضى المملوكية ، وأن ذلك الأخير قد أحــدث هــذا المناخ الذى تسبب عنــه الصراع بين السلطة المركزية فى مصر والأجانب ، وبينها وبين الفرنج فى آن واحد ٠

كما تشهد أخبار الغزو التيمورى فى بلاد الشام على أنه أفقد بطريق غير مباشر النظام النقدى توازنه فى مصر والشام ، ذلك أن أعمال النهب التى شــنها العســكر التيمورى شملت الدراهم والدنانير فى حين أبقت على الفلوس النحاسية بأيدى

أصحابها(٩٦) مما أحدث أزمة اجتماعية ، ذلك أن نقصان العملات الفضية والذهبية على هذا النحو فى الشام ونقصانها بالتالى فى مصر لكثرة الطلب عليها وجبايتها للصرف على نفقات الجيوش فى وقت كثرت فيه العملات النحاسية من الفلوس قد أضر ضررا بالغا بحياة الناس فى مصر والشام ، اذ كان من الطبيعى أن تؤدى تلك الظاهرة الى تضخم خطير أدى الى ارتفاع الأسعار .

وكان للغزو التيمورى على الشام أبعاده الحضارية ، اذ أسهم بطريق غير مباشر فى التطور الحضارى لسمرقند حاضرة تيمورلنك ، ذلك أنه على الرغم من شذوذ تيمور ونظافته نراه محبا للفن والأدب(٩٧) فأبقى على الفنانين السوريين واستخدمهم ، وتشير المصادر فى هذا المجال الى أن تيمورلنك اختص من أهل دمشق أرباب الصنائع والحرف من النساجين والخياطين والحجارين والبياطرة والخيمية والنقاشين ، وأمر بترحيلهم الى سمرقند(٩٨) .

والحق أن الجهود التى أسهم بها الفنانون السوريون فى الحياة الفنية لمدينة سمرقند فى عهد تيمور لم تأخذ قدرا من عناية علماء الآثار المتخصصين فى الاسلاميات ، ومما لا شك فيه أنه كان لهؤلاء الفنانين دور هائل فى نقل التأثيرات الفنية الصينية الى سمرقند مما كان له أكبر الأثر فى ازدهار سمرقند كمركز لفن التصوير الاسلامى (٩٩) .

ومن الثابت أن المنسوجات فى بلاد ما وراء النهر قد تأثرت بزخارف المنسوجات الصينـة بسبب ازدياد الوارد من هـذه المنسوجات وغزوات المغول وقـدوم كثير من النساجين الذين نقلوا الفن الصينى الى هناك ما يشـير الى جهود النساجين السوريين لنشر الفن الصينى فى زخرفة النسيج السمرقندى فى عهد تيمور •

والمعروف ان اقبال المغول على الفن الصينى — بالذات — يرجع الى عهد أسرة يوان المغولية التى تبوأت مقاليد الحكـم فى الصين حتى سنة ٦٦٨ هـ / ١٣٦٧ م مما كان له أثر لا يغفل فى ازدياد التبادل الثقافى بين أبناء البيت الواحد المغـول فى امبراطوريتهم فى الصين وامبراطوريتهم فى ايران (١٠١) •

كذلك كان لأرباب الحرف السـوريين من الذين أمر بترحيلهم تيمورلنك الى سمرقند دور فى الحياة العامة بهـذه المدينة ، ومن بينهم الخياطون الذين يخيطون الثياب ، وتعـد هذه الحرفة من الصنائع المختصة بالعمـران الحضرى (١٠٢) كما كان من الطبيعى أن يكون للخيمية الشاميين دور فى صناعة الخيام فى مدينة سمرقند ، كما أننا لا نستبعد ان يكون لأرباب الوظائف السوريين دور فى حياة تيمورلنك الخاصة ، وهو أمر أغفلته المصـادر المعـاصرة ، وتخص بالذكر من هـؤلاء البازدراية (١٠٣) الذين يستخدمون عند الخروج للصـيد ، والمعروف أن المغول منذ عهد هولاكو كانوا قد اهتموا بالقائين

على الصيد فى البلاد الشامية ، فقربوهم اليهم حتى صاروا من أصحاب الحظوة عندهم (١٠٤) ٠

على أنه فى الوقت الذى أسهم فيه تيمورلنك بدور فى الارتقاء بحاضرة دولته سمرقند ، نراه يلحق بأراضى الدولة المملوكية كارثة حضارية ذات أثر بالغ فى انحطاط فنونهاوتأخرها الى أجيال ، وتفاقمت تلك الأزمة بترحيلة أهل دمشـــق من فضلائها وأرباب حرفها وفنونها مما كان له أثر بالغ الخطورة على كافة الجوانب الحضـــارية ، اذ أضعفت أحداث التخريب التى أعملها تيمورلنك من شأن نظم الــرى والزراعة فى بلاد الشام فضلا عن تناقص أعداد العناصر العـــاملة فى زراعة الأراضى ، كما أصيب النشاط الصناعى بتدهور شديد كان من أهم مظاهره ذلك الارتفاع الهائل فى أسعار السلع الصناعية فى بلاد الشام (١٠٥) وظلت الحـــال على ذلك الى أن بذل السلاطين الذين جاءوا من بعد فرج بن برقوق جهودا موفقه فى سبيل اصلاح نظم الرى والزراعة فى الشام (١٠٦) ٠

أما مصر ، فقد كان لانهيار النظام الاقطـــاعى المواكب لأحداث الغزو التيمورى على الأراضى الشامية أثر فى احداث هزات اجتماعية لحقت بالحياة الخاصة لكل فئة اجتماعية ، حيث انتشر الفقر والفاقة واشتد الاستياء بالمصريين فلجأوا الى الحلول الانسحابية فرارا من قسوة الحياة ورغبة فى الهناء دون عناء (١٠٧) ، ويعكس لنا هذا الأمر انتشار ظـــاهرة

التصوف فى مصر حيث اشتدت فى تلك الآونة عن ذى قبل ، وضمت بيوت الصوفية كثيرا من الدخلاء الذين أقبلوا على هذه الأماكن فرارا من قسوة الحياة ، وكان طبيعيا أن تشمل ضروب الاصلاح التى أقامها كل من السلطان برقوق وابنه فرج بما يتفق والظروف المحدقة بعهدهما اللذين أخذا سبيلهما الى الانقراض أمام أطماع السوريين وغارات تيمورلنك ، وليس أدل على ذلك من أن البناء الحضارى فى عهد الاثنين لم يصل الى ما وصل اليه السابقون واللاحقون فيما عدا ما أقاموه من خوانق وحسبنا فى ذلك أن أول المنشآت المعمارية فى عهد الجراكسة كانت الخانقاه التى شيدها برقوق للصوفية فى ١٢ رجب سنة ٧٨٨ هـ / ١٣٨٦ م (١٠٨) ويبدو ان الضعف الاقتصادى الذى عانت منه البلاد المصرية فى تلك الآونة قد وقف حائلا أمام النشاطات الحضارية حتى بلغ الأمر بأن غدت خانقاة الظاهر برقوق مؤسسة دينية لمبنى واحد يؤدى وظائف ثلاث مؤسسات المسجد والمدرسة والخانقاه .

ونهج السلطان فرج سبيل أبيه برقوق ، فأقام مؤسسة للصوفية سنة ٨١١ هـ وكانت البلاد حينذاك لم تفق من الكارثة التى أحدثها تيمور حيث ظلت آثارها قائمة ، وتذكر المصادر أنه كان من شأن تلك الظروف السيئة أن يلقى العمال والصناع الذين ساهموا فى بناء تلك المؤسسة الدينية القسوة والجور مع ضآلة الأجور وأن يستولى السلطان فرج بأثمان زهيدة

على كتب ومصاحف مدرسة السلطان شعبان ونقلهـــا الى مؤسسته (١٠٩) ٠

هذا ولم تظهـر لنا الآثار القائمة التى ترجع الى عهـد السلطان الظاهر برقوق وابنه فرج ســوى هذه المؤسســات الدينية التى أقيمت فى وقت أشـتد فيه تيار التصـوف عن ذى قبـــل ٠

كما أننا لم نر فى بطون الكتب المعاصرة ما يفيد الى أن الجانب الحضارى قد أخذ حظا من عناية الأمراء فى عهدى برقوق وابنه فرج اللهم الا ذلك القصر الذى أنشـأه الأمير الطواشى سيف الدين بهادر وسرعان ما خصصه السلطان بوفاة هـذا الأمير سنة ٨٠٢هـ ليكون منزلا لأمراء الدولة (١١٠) ٠

والمعروف أن العادة جرت على أن يترك الأمير أملاكه بعد وفاته الى السلطان يتصرف فيها كيفما يشاء فيهبها لمن يشـاء ولمن يستحق ، على أن تخصيص قصر بهادر على هذا النحو بعد وفاته من قبل السلطان دون تخصيصه لأمير بذاته ، دليل على أن السلطان رغب فى أن يحظى بعطف الأمراء وولائهم له فى وقت كان فى مسيس الحاجة لمثل ذلك حتى يتفرغ لمشروعاته فى الدفاع ازاء ما ألم بسلطته من أطماع خارجية من جانب تيمور لنك وثوار سوريا ٠

وصفوة القول فان محدودية نشاط مصر المملوكية فى أول

عهد الجراكسة أتاحت لتيمورلنك أن يتجه صـــوب الأراضى المملوكية تنفيذا لسياسته التوسعية فشن عدة غارات على بلاد الشـــام ســـنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م كان من شـــأنها أن ألقت هذه البلاد فى هوة من الفوضى ، وأنزلت بها كارثة حضارية امتدت آثارها الوخيمة الى مصر بحيث منيت أحوالها الاقتصـــادية بضعف شديد وشـــعر الأهلون بالظلم والجور ازاء الســـياسة التعسفية التى أقدم عليها الأمراء فى جمع الضرائب بدعوى الجهاد ، وانتشرت على أثر ذلك ظاهرة التصوف بصـــورة لم يسبق لها مثيل وظلت الحال على ذلك حتى جاء خلفاء فرج بن برقوق وبذلوا جهودا موفقه فى سبيل الاصلاح •

الهـوامش

١ ـ أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ـ حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

٢ ـ المقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٥٢٤ ، ٥٧٤ ، ٥٨٤ . سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، صفحة ٤١ وما بعدها .

٣ ـ حول تماسك المماليك البحرية لمواجهة خطر التتار ، أنظر ابن واصل : مفرج الكروب حـ ٤ نشر د. حسنين ربيع . المقريزى : السلوك حـ ١ ، ص ٤١٩ ـ ٤٢٠ .

٤ ـ المقريزى : الخطط حـ ٢ ، ص ٣٠١ .
السيوطى : حسن المحاضرة ، حـ ٢ ص ٨٦ ـ تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٨ .

٥ ـ المقريزى : الخطط حـ ٤ ، ص ١٦١ ط النيل .

٦ ـ أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ ، أنظر .

٧ ـ المقريزى : الخطط ، حـ ١ ، ص ٩١ و ١٩٠ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، حـ ١٠ ، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠

٨ ـ المقريزى : الخطط ، حـ ١ ص ١٩٠ و ٢٤١ ـ السلوك حـ ٣ ص ١١١٦ .

٩ ـ يدور محور ذلك النزاع حول أطماع الجراكسة والمماليك ذلك أن السلطان برقوق اختص الجراكسة بالاقطاعات والوظائف الكبيرة على حساب المماليك

الترك الذين دبـــروا مؤامرة لقتـــله واعــــلان المتـــوكل (٧٦٢هـ — ٧٨٤هـ) سلطانا بديلا عنه ، غـــير أن برقوق تمكن من عزل المتوكل ، وأحل محـــله الواثق بالله ، الأمر الذى جعل الترك يقفون بزعامة منطاش نائب ملطيـــة ونائب حلب ، ومعهما يلبغا الناصرى ودخلوا القـــاهرة مدفوعين بخروج مدن الشام عن طاعة برقوق ، وتذمر المماليك فى القاهرة وسخطهم على برقوق فى وقت انتشار الطاعون بالبلاد ، وانتهى الأمر بسيطرة يلبغا الناصرى على القلعة ، على أن برقوقا لم يلبث أن عاد الى السلطنة للمرة الثانية (٧٩٢ — ٨٠١ هـ) وظل بغرمائه حتى تخلص منهم ٠

ابن حجر : الدرر الكامنة ، حـ ٤ ، ص ٣٦٦ ٠

١٠ ـــ ابراهيـــم طرخـــان : مصر فى عصر دولة المـــماليك الجراكسة ، ص ٢٦١ ، أنظر :

١١ ـــ المقريزى : السلوك حـ ٣ ، حوادث سنة ٨٠٠ هـ ٠

١٢ ـــ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، حـ ٩ ، ص ٣٧٦ وما بعـــــدها ٠

١٣ ـــ الرمزى : تلفيق الأخبـــار ، صفحة ٥٨٥ و ٥٨٦ انظر

١٤ ـــ ابراهيم طرخان : المصدر نفسه ، ص ٧٧ ٠

١٥ ـــ ابن أياس : بدائـــع الزهور ، حـ ١ ، ص ٣٢٠ — ٣٢٤

١٦ ـــ المقريزى : الخطط ، حـ١ ص ٩١ ، أنظر ٠

١٧ – ابن دقماق : الانتصار جـ ٤ ، ص ١٣٣ – ١٣٦ ، جـ ٥ ، ص ١٥ •

ابن الجيعان : التحفة السنية ، ص ١٤٧ وما بعدها ، ص ١٧٤ •

١٨ – النويرى : نهاية الارب ، جـ ٢٩ ورقة ٣٢٤ و ٣٢٥ •

١٩ – ابن أياس : المصدر نفسه ، جـ ١ ص ٣٠٠ انظر •

٢٠ – سعيد عاشور : العصر المماليكي فى مصر والشام ، ص ٢٥٦ •

٢١ – العينى : عقد الجمان ، ص ٢٥ ، حوادث سنة ٨٠٣ •

٢٢ – العينى : المصدر نفسه والسنة •

٢٣ – القرمانى : أخبار الدول وآثار الأول ، ص ٣٣٦ •

٢٤ – انظر رأيا مخالفا لذلك (ابراهيم طرخان : مصر فى عصر المماليك الجراكسة ص ٧٤) •

٢٥ – بفتح أولة وثانية وتقع على جنوب وادى الصفد ضمن الأقليم الرابع ، وقيل أنها من أبية ذى القرنين بما وراء النهر ، ويقال لها بالعربية سمران (المقدسى) : أحسن التقاسيم ، ص ٢٧٨ – ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٥ ص ١٢١ •

٢٦ – ويعنى بها اقليم خوارزم ، الذى ، يقع على شاطىء جيحون ويقع الى الشرق والجنوب من اقليما خراسان

وما وراء النهر ، ويحسبه الجغـــرافيون من الاقليـــم السادس •

(الاصطخرى : مسالك المـــالك ص ١٩٨ ـ ياقوت : معجم البلدان حـ ٣ ص ٤٧٤) •

٢٧ ـ من نواحى أصطخر باقليم فارس (الاصـــطخرى : مسالك الممالك ص ٣٢٤) •

٢٨ ـ بفتح أوله وسكون ثانيه وكسر ثالثه يحيط بها ممـــا يلى المشرق الجبال والديلم ، ومما يلى المغرب حـــدود اللان ونواحى من حد الجزيرة ، ومما يلى الجنـــوب العراق ونواحى من حدود الجزيرة (الأصـــطخرى : مسالك الممالك ص ١٠٨) •

٢٩ ـ ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ٥ — ١٤ •

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ١٢ ص ٢٥٦ وما بعدها •

Malcolm : The History of Reasia p, 285—296

٣٠ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، حـ ١٢ ص ٢٥٦ وما بعـــدها أنظر •

٣١ ـ ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ٧١ وما بعدها •

ابراهيم طرخان : المصدر نفسه ، انظر ، ص ٧٧ •

٣٢ ـ سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشـــام ص ١٥٩ ، أنظر •

٣٣ ـ المقريزى : السلوك حـ ٣ ، حوادث سنة ٨٠١ •

ابن اياس : بدائع الزهور ، حـ ١ ص ٣٢٦ أنظر •

٣٤ ـ wiet : L' egypt Arabe J,Jv, p. 525

٣٥ ـ ابن اياس : بدائع الزهور ، حـ ١ ص ٣٢٦ •

٣٦ ـ ابن عربشاة : المصدر نفسه ، ص ٨٧ •

٣٧ ـ المقريزى : السلوك : حوادث سنة ٨٠٣ •
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، حـ ١٢ حوادث سنة ٨٠٣

٣٨ ـ المقريزى : السلوك حـ ٣ ، حوادث سنة ٨٠٣
أبو المحاسن : المصدر نفسه حوادث سنة ٨٠٣هـ •

٣٩ ـ المقريزى : المصدر نفسه والسنة •

٤٠ ـ ابراهيم طرخان : المصدر نفسه ، ص ٨٢ • تظاهر تيمور لنك برغبته فى الصلح ، وأقنع الشاميين ، وأشار مستشارو فرج بطلب الصلح ، وانقسم على أثر ذلك المعسكر المملوكى الى فريقين حتى بلغ ببعضهم الأمر بأن نادوا بعزل السلطان فرج واقامة سلطان جديد ، وخشى أنصار السلطان أن تؤدى هذه الفتنة الى اعلان سلطان جديد ، ولم يسع هؤلاء الا أن أجبروا السلطان فرج على العودة الى مصر ، انظر طراخان المصدر نفسه ص ٨٣ •

٤١ ـ كان ذلك النزاع سببا فى أن يسعى كل من الجانبين الى تكوين حلف لضرب الآخر ، فسعى برسباى لعقد معاهدة دفاعية مع العثمانين •

(موير : تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ص ١٢٩) فى حين مهد شاه رخ لحلف ضد برسباى يضم أمير الشاة البيضاء وأمير دلقادر وأوعز الى أمير دلقادر باطلاق سراح جانيك أخطر منافسى لبرسباى (أنظر طرخان المصدر نفسه ص ٩١ ، ٩٢) .

wiet : L'egypte ARabe, Tlv p 585—586

٤٣ ـ السخاوى : التبر المسبوك ص ٩٧ و ٩٨ .

٤٤ ـ المقريزى : السلوك ﺣ ٣ حوادث سنة ٨٠٣ ﻫ ..

٤٥ ـ أبو المحاسن : النجوم ﺣ ١٢ حوادث سنة ٨٠٣ ﻫ ، صفحات ٢١٨ و ٢١٩ و ٢٣٨ و ٢٣٩ .

Wolker : Jenghiz Khan , p. 27

٤٧ ـ المقريزى : السلوك ﺣ ٣ حوادث سنة ٨٠٣ ، أبو المحاسن : النجوم ﺣ ١٢ حوادث سنة ٨٠٣ ﻫ .

٤٨ ـ عرف المسلمون الخطط البيزنطية فى ادارة الحروب وكان العرب المسلمون قد واجهوا البيزنطيين وخططهم العسكريين منذ أن نجحوا بخططهم فى فتح مصر والشام والمغرب فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وتذكرنا الخطة التيمورية فى غزو الشام ـ بالخطة العربية التى اتبعها عمرو بن العاص فى فتح مصر ، كما تذكرنا الخطة الشامية الى اتبعتها القيادة لدرء الخطر التيمورى بالخطط

التى اتبعها البيزنطيون لمنع العرب المسلمين من دخول مصر والشام ، على أن الشاميين لم يعتصموا بحصونهم المنيعة الا بعد أن أخفقت خططهم التنظيمية . (حول الخطط البيزنطية ومايقابلها من خطط عربية اسلامية فى عهد الفتوحات زمن الخليفة عمر بن الخطاب أنظر الواقدى: فتوح الشام حـ ٢ الفصل الآخير) .

٤٩ — المقريزى : السلوك حـ ٣ ، ص ١٠٣٢ ، أنظر .
٥٠ — المقريزى : السلوك حـ ٣ ، ١٠٣٢ .
٥١ — المقريزى : المصدر السابق والصفحة .
٥٢ — المصدر السابق والصفحة .
٥٣ — المقريزى : السلوك جـ ٣ ، ١٠٣٣ .
٥٤ — المقريزى : المصدر السابق حـ ٣ ، ١٠٣٣ و ١٠٣٤ .
٥٥ — المقريزى : المصدر السابق حـ ٣ ، ص ١٠٣٤ .
٥٦ — المصدر السابق والصفحة .
٥٧ — المقريزى ، المصدر السابق حـ ٣ ص ١٠٣٤ .
٥٨ — ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١٢ ، ص ٢٣٩ .
٥٩ — المقريزى : السلوك حـ ٣ ص ١٠٣٩ ، أنظر .
٦٠ — ابن تغرى بردى : النجوم حـ ١٢ ص ٢٣٩ .
٦١ — نفس المصدر السابق والصفحة .

٦٢ ــ من بين هذه الترتيبات بنائه لقلعة خشبية بارتفاع يماثل ارتفاع قلعة دمشق ، ويذكر المعاصرون أن العسكر التيموري صعد هذه القلعة حتى بلغوا أقصى ارتفاعها وقاتلوا أهل دمشق الذين احتموا بداخل قلعتهم •
(أبو المحاسن : النجوم حـ ١٢ ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٣) •

٦٣ ــ أبو المحاسن : النجوم ، حـ ١٢ ، ص ٢٣٥ •

٦٤ ــ المقريزى : السلوك ، حـ ٣ ، ص ١٠٤٤ •

٦٥ ــ المقريزي : المصدر السابق والصفحة ــ أبو المحاسن : النجوم ، حـ ١٢ ص ٢٣٥) •

٦٦ ــ أبو المحاسن : النجوم ، حـ ١٢ ، ص ٢٣٩ •

٦٧ ــ أبو المحاسن : المصدر نفسه والصفحة •

٦٨ ــ المقريزى : السلوك حـ ٣ حوادث سنة ٨٠٣ ــ أبو المحاسن : النجوم حـ ١٢ ، ص ٢٤١ ، يمثل هذا الحاصل الرقمى الف تومان ، والتومان يعادل عشرة آلاف دينار (أبو المحاسن : النجوم حـ ١٢ ، ص ٢٤١) •

٦٩ ــ أبو المحاسن : النجوم ، حـ ١٢ ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ •

٧٠ ــ أبو المحاسن : المصدر نفسه حـ ١٢ ، ص ٢٤٢ •

٧١ ــ المصدر نفسه حـ ١٢ ، ص ٢٤٤ •
نشر كل أمير فى ناحيته أعمالا تعسفية أملا فى جباية الأموال ، فأجرى على الأهالى (العذاب من الضرب

والعصر والاحراق بالنار والتعليق منكوسا .. فكان الرجل اذا أشرف على الهلاك يحل عنه حتى يستريح ، ثم يعاد عليه العقوبة أنواعا ...) أبو المحاسن : المصدر نفسه والصفحة .

٧٢ — المقريزى : السلوك حـ ٣ حوادث سنة ٨٠٣ أبو المحاسن : النجوم حـ ١٢ ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

٧٣ — عجائب المقدور ، ص ٩٦ — ٩٨ .

٧٤ — ابن عربشاه : المصدر نفسه والصفحات .

٧٥ — ابن عربشاه : المصدر نفسه والصفحات .

٧٦ — المقريزى : السلوك حـ ١/٣ أحداث سنة ٦٥٧ و ٦٥٨. ابن كثير : البداية والنهاية حـ ١٣ ، ص ٢٦٨ و ٢٦٩ ، انظر .

٧٧ — المقريزى : الخطط ، حـ ١ ، ص ٩١ ، أنظر .

٧٨ — عارض القضاه السلطان فرج بن برقوق فى أمر جباية الأموال عن طريق فرض ضرائب استثنائية على الفئات المعروفة بثرائها فى مصر ، كما عارضوه أيضا فى رغبته فى حل نصف الأوقاف (اعانه على النفقة فى العساكر) من البطالين من الذين استبعدوا من الاشتراك فى الحروب خشية أن يستولى هؤلاء الجنود على تلك الأموال ،ويميلون كل الميل (عند اللقاء مع من غلب) أنظر المقريزى :

السلوك حـ ٣ ، ص ١٠٢٩ ، وأبو المحاسن : النجوم ، حـ ١٢ ص ١٢٨ •

٧٩ ـ المقريزى : المصدر السابق والصفحة •

٨٠ ـ السلوك ، حـ ٣ ، ص ١٠٥٢ •

٨١ ـ عقد الجمان حوادث سنة ٨٠٣ •

٨٢ ـ محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، ص ٣٣٤ ، أنظر •

٨٣ ـ هى الأراضى التى يأخذ ثمنها قوم من الناس على سبيل البر •
(أنظر المقريزى : السلوك ، حـ ٣ ، ص ١٠٥٢) •

٨٤ ـ المقريزى : السلوك ، حـ ٣ ، ص ١٠٥٣ ـ ١٠٥٥ ، الخطط حـ ٢ ،ص ٢٥٢ • ابن اياس : بدائع الزهور ، حـ١ ص ٣٣ ، محمد محمد أمين ، المصدر نفسه ص ٣٣٤ •

٨٥ ـ المقريزى : السلوك ، حـ ٣ ، ص ١٠٥٣ •

٨٦ ـ المقريزى : المصدر السابق والصفحة •

٨٧ ـ المقريزى : المصدر السابق ص ١٠٥٤ •

٨٨ ـ المقريزى : المصدر السابق ، ص ١٠٥٣ •

٨٩ ـ المقريزى : المصدر السابق ، ص ١٠٥٦ •

٩٠ ـ المصدر السابق ، حـ٣ ، ص ١٠٥٣ •

٩١ ــ المصدر السابق ، حـ ٣ ، ص ١٠٤٠ .

٩٢ ــ محمد محمد أمين : المصدر نفسه ، ص ١٢٩ .

٩٣ ــ المقريزى : السلوك حـ ٣ ، ص ١٠٥٤ و ١٠٥٧ و ١٠٦٦ .

٩٤ ــ المقريزى : السلوك ، حـ ٣ ، ص ١٠٥٨ .

٩٥ ــ المقريزى : المصدر السابق ، حـ ٣ ، ١٠٥٩ .

٩٦ ــ المقريزى : المصدر السابق ، حـ ٣ ، ١٠٤٩ .
وكان فى تلك الآونة قد ارتفعت قيمة العملات الفضـــية والذهبية لشدة الطلب عليها من قبل التجار الأوربيين ، ورغبتهم فى تصدير النحـــاس الى الشرق الاســـلامى ترويجا لمنتجات المناجم النحاسية التى ازدهرت وارتقت فى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى ، واشـــتدت الأزمة على أثر ذلك حتى غدت أكثر ســوداً بالدولة المماليكيـــة (أنظر آشتور : أحوال الشرق الأوســط الاقتصـــادية والاجتماعية فى العصور الوسطى ، ص ٣٨٩) .

٩٧ ــ زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ١٧٧ ــ ١٧٩

٩٨ ــ سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشـــام ص ٨٨ و ٢٢١ .

Lane Poole : His of Egpt in The meitd Le Ages , p.212

٩٩ ــ زاد اتصال العالم الاســـلامى بالشرق الاقصى فى عصر المغول زيادة كبيرة ، مما جعل المغول على اتصـــال دقيق بالثقافة الصينية ، ومن هنا كان عصر المغول عصر

ازدهار نسبى فى الفنون لاسيما فن التصوير وصـــناعة الخزف ، وذلك على الرغم من شهرتهم فى تخريب المدن وسفك الدماء ، وتتجلى أثر الفن الصينى فى صـــــور المدرسة المغولية فى سحنة الأشخاص ، وتمثيل الطبيعـــة والدقة فى الرسوم النباتية والرسوم الحيوانية ، وتظهر التأثيرات الصينية فى رسوم السحب والحيوانات الخرافية (زكى حسن : فنون الاسلام ، ص ١٧٧ انظر) ٠

١٠٠ ــ زكى حسن : المصدر نفسه : ص ٣٧٦ ٠

١٠١ ــ زكى حسن : المصدر نفسه والصفحة ٠

١٠٢ ــ حسن الباشا ٠ الفنون الاسلامية والوظائف عــلى الآثار العربية جـ ١ ص ٥٠١ ٠

١٠٣ ــ البازدار لفظة فارسية مؤلفــة من كلمــة باز بمعنى صقر ودار بمعنى ممسك ، ومعناها العام حامل الصقر ، وكان البازدار موظفا من أرباب الخدم فى مصر والشـــام فى عصر المماليك وكان يكلف بحمل الطيور الجوارح المعدة للصيد على يده عند الخروج للصيد (القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ، ص ٤٦٩ ــ حسن الباشا ، المصدر نفسه، جـ ١، ص ٢٩٢ ٠

١٠٤ ــ حسن الباشا : المصدر نفسه جـ ١ ، ص ٢٢٨ ، انظر

١٠٥ ــ ومن بين هذه السلع ، السكر ، وتذكر المراجــع أن أسعار هذه السلعة ازدادت فى بلاد الشام فى العقـــد

الثامن من القرن الرابع عشر الميلادى واشـــتدت فى بداية القرن الخامس عشر الميلادى ، وهى الفترة الزمنية التى وقع فيها الغزو التيمورى على تلك البلاد (آشتور : المصدر نفسه ، ص ٤٠٧) ٠

١٠٦ ــ المقريزى : السلوك ، ﺟ ٢ ، ص ٨٤٣ ــ أبو المحاسن: النجوم ، ﺟ ٦ ، ص ٢٧٢ ٠

١٠٧ ــ محمد محمد أمين ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٧ ٠

١٠٨ ــ ابن اياس : بدائع الزهور ، ﺟ ١ ، ص ٢٦٤ و ٢٦٥٠ حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، ﺟ ١ ، ١٩٢ ــ محمد أمين : المصدر نفسه ، ص ٢٠٧ ٠

١٠٩ ــ ابن اياس : بدائع الزهور ، ﺟ ١ ، ص ٢٦٥ ومابعدها

١١٠ ــ المقريزى : الخطط ، ﺟ ٢ ، ص ٧٤ ٠

ABSTRACT

The period in which the Taymouri invasion happeened at El Sham — is considered on urgent historical period in the history of Mamluks, this is because that invasion has meanings which deserve study and consideration, it reflex the state of weakness which occured in Egypt during thee Mamlucks, and which is Characterzied by the laziness of Egypt in the first Age of Garks fols which is to defeat the outer danger this leads to that trouble in the Moslen Eastern countries.

And in front of Egypt laziness under the Manluks we find taymourlank begenning to enlarge his domination, so he turns to Iraq and for parts of Mamluky empire in 803 H, after he succeded in opening the north of Persia and Elvelga river.

Some re sources asure that he did not find any difficulty in fighting the inhabitants of these countries and he gained mang gains.

The military plans show us that Egypt was far from place of the military deeds this is because Mamluk's authority in Egypt left this offer to the leadership of El Sham, this makes the leader ship follow protective plans which remind us of the Byzantine plans, for this leadership did not find any way in Front of those rabbish attacks except hiding n the strong places this makes the mamluks loose itselfe in administring wars and tymourlank did not Find any difficuulty in entering El sham and defeat its in halutants.

This taymoury attack had a bad effect on the social and economical life in Egypt and El Sham, and they faced a very bad cultural crises although he Shared in The cultural development in Sumrkund,

المصادر والمراجع

أولا : المصادر المخطوطة

١ ــ العينى (بدر الدين محمود ت ٨٥٥هـ /١٤٥١م) ٠
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان الجزء الخامس والعشرون ٠ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ ٠٠

٢ ــ النويرى (شهاب الدين أحمد ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م)
نهاية الأرب فى فنون الأدب جزءان ٣٨ و ٢٩ ٠ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة ٠

ثانيا : المصادر العربية المطبوعة

٣ ــ ابن اياس (أبو البركات محمد ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م)
بدائع الزهور فى وقائع الدهور الجزء الأول بولاق سنة ١٣١١ هـ ٠

٤ ــ ابن الجيعان (شرف الدين يحيى ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م)
التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، مصر ، المطبعة الأهلية سنة ١٢٩٨ هـ ٠

٥ ــ ابن حجر (شهاب الدين بن على ت ٨٥٢ هـ)
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة الجزء الرابع الهند سنة ١٩٢٩ م ٠

٦ – ابن دقماق (ابراهيم بن محمد المصرى ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦ م) .

الانتصار لواسطة عقد الأمصار الجـزء الرابـع بولاق سنة ١٣٠٩ هـ .

٧ – الأصطخرى (توفى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) .

مسالك الممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال القـاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١ م .

٨ – ابن عربشاه (شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقى ت ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م) .

عجائب المقدور فى أخبار تيمور مصر سنة ١٢٨٥هـ .

٩ – ابن الفرات (ناصر الدين محمد ت ٨٠٧هـ /١٤٠٤م) تاريخ الدول والملوك ، الجزء التاسع نشر قسطنين زديق ونجلاء عز الدين بيروت ١٩٣٨ .

١٠ – أبو الفدا (عماد الدين اسماعيل ٧٣٣هـ / ١٣٣١م) المختصر فى أخبار البشر ، الجزء الثالث القاهرة ١٣٢٥هـ

١١ – ابن كثير (عماد الدين ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) .
البداية والنهاية ، الجزء الثالث عشر مصر ١٣٥١ هـ .

١٢ – السخاوى (شمس الدين محمد ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م)

التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، بولاق ١٨٩٦ م .

١٣ ـ السيوطى (عبد الرحمن بن أبى بكر ٩١١هـ / ١٥٠٥م)
حسن المحاضرة ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٨٨١م .
١٤ ـ تاريخ الخلفاء القاهرة ١٣٥١ هـ .
١٥ ـ القرمانى (أبو العباس أحمد الدمشقى ت ٩٣٩هـ / ١٥٣٢م)
أخبار الدول وآثار الأول ، بغداد ١٢٨٢ هـ .
١٦ ـ القلقشندى (شهاب الدين أبو العبـاس ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) .
صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ، الجزء الخامس دار الكتب المصرية .
١٧ ـ أبو المحاسن (جمال الدين يوسف تغـرى بردى ت ت ٨٧٤هـ / ١٤٩٦م) .
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، الجزء الثانى عشر . طبعة مصور من نسخة دار الكتب المصرية .
١٨ ـ المقريزى : (تقى الدين أحمد ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) .
المواعظ والاعتبـار فى ذكر الخطط والآثار جزآن بولاق ١٢٧٠ هـ .
١٩ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الثالث ، تحقيـق (سعيد عاشور) . دار الكتب المصرية ١٩٧٢ م .

٢٠ ـ المقدسى (ت ٣٨٧هـ ـ ٩٩٧م) .
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٦ .

٢١ ـ الواقدى (ت ٢٠٧هـ) .
فتوح الشام ، الجزء الثانى ، بيروت ، ط دار الجيل .

٢٢ ـ ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ ـ ١٣٠٨م) .
شهاب الدين ابن عبد الله .
معجم البلدان ، الجزءان الثالث والخامس طبعة السعادة ، طبعة أولى ١٩٠٦ م ـ ١٣٢٣ هـ .

ثالثاً : المراجع العربية الحديثة

٢٣ ـ ابراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة القاهرة ١٩٦٠م .

٢٤ ـ آشتور : تاريخ الشرق الأوسط الاقتصادى والاجتماعى فى العصور الوسطى . الطبعة الأولى ـ دمشق .

٢٥ ـ حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية ، الجزء الأول القاهرة ١٩٦٦ م .

٢٦ ـ حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية الجزء الثانى القاهرة ١٩٤٦ م .

٢٧ ـ زكى محمد حسن : فنون الاسلام الطبعة الأولى القاهرة ١٩٤٨ م .

٢٨ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٥ م .

٢٩ ـ محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر (عصر المماليك) . الطبعة الأولى القاهرة ١٩٨٠م .

٣٠ ـ موير سير وليام : تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ترجمة محمد عابدين وسليم حسن ، مصر ١٩٢٤م .

رابعا : المراجع الأفرنجية

31 — Lame Poole :—
A History of Egypt in The Middle ages (London 1925).

32 — Malcolm Sir J.
The History of Persia (London 1979).

33 — Wiet (Gaston)
I, Egypte Arabe (Histoire de la Nation Egyptienne Tom IV Paris 1937.

34 — Wolker, C.C.
Jenghiz Khan (London 1939).

رقم الايداع ١٩٨٦/٥٥٩٩

ترقيم دولى ٦/٢٥/١٢٩٦ — ٩٧٧

مطبعة الأمانة

٣ شارع جنينة بدران شبرا - مصر